الثقافة التي نريد..
الثقافة التي نستطيع

• أ.د محمد عدنان البخيت

تحت هذا عنوان "الثقافة التي نريد" كنت قد حاضرت بقاعة الشهيد هزاع المجالي في مدينة الكرك بتاريخ 1993/3/28م وكانت المحاضرة بمناسبة يوم الأرض، ولعل اختيار الكرك مدينة للثقافة الاردنية لهذا العام، في الوقت الذي نحتفل به بالقدس عاصمة للثقافة العربية، يفرض علينا معاودة السؤال مجددا عن الثقافة التي نريدها للأمة في هذا الزمن الصعب.

وأحب بادئ ذي بدء وأنا اعاود القراءة فيما قلته آنذاك ولم انشره، أن أعدّل على عنوانه بحيث يصبح "الثقافة التي نستطيع"، وإذا ما كان اقتراحي صائبا فإنني أبادر إلى القول بانني سأكتفي بإثارة عدد من القضايا من منطلق الانتماء والالتزام والحرص على تشخيص علمي موضوعي لواقع الثقافة العربية سواء في دار العروبة أو في المهجر منذ أن رفع الشيخ مرتضى الزبيدي رحمه الله راية الإصلاح والنهضة إلى يومنا هذا. وجميع الملاحظات التي سأقدمها في هذا المقال إنما هي انطباعات شخصية، وهي بالتالي قابلة للنقض والتعديل كما هي قابلة للإثراء والتطوير وهي تمثل وجهة نظر الشخصية ولا تعكس شيئاً غير ذلك.

وإذا ما انطلقت في ملاحظاتي من سنة 1792م وهي تقريباً سنة وفاة السيد الزبيدي ووصلت بها إلى هذا العام فإنها تغطي حقبة زمنية تتناول قرنين من عمر الأمة كان العرب فيها جزءاً من سلطنة آل عثمان، وكان بعضهم وبخاصة في مناطق الخليج قد بدأ يخضع للاحتلال الإنجليزي التجاري ثم السياسي والعسكري، كما أن مصر وبلاد الشام بعدها بست سنوات وقعتا تحت الاحتلال الفرنسي، وبذلك أصبحت الثقافة العربية الإسلامية تقف وجهاً لوجه أمام ثقافة أوروبية قوية لا تقل عن قوتها الدينية والعسكرية، الأمر الذي حدا بالثقافة العربية إلى لبس ثوب جديد هو ثوب القومية، التي هي نشق أزهار أوروبا الجديدة والتي عرفت طريقها إلى بلاد المسلمين فيما بعد من خلال الإرساليات والرحلة والترجمة، وعن طريق المهاجرين المسلمين من أواسط آسيا، وأصبحت القومية تزاحم الطروحات الدينية في الولاء والاعتبار.

وشهد القرن التاسع عشر حركة أحياء عربية كبرى تمثلت في إعادة تحقيق النصوص ونشرها وتوزيعها على نطاق واسع بفضل

* الجامعة الاردنية

المطبعة الأوروبية في بولاق والأستانة وبيروت.

كما شهد هذا القرن ظهور آداب جديد كان أولها أدبُ الصحافة،ابتداء من الوقائع المصرية والجوائب ونفير سوريا والجرائد الرسمية للدولة العثمانية في الولايات، وبذلك ظهر لدينا أدب جديد هو أدب وسائل الإعلام، المقصود به إيصال وجهة نظر الدولة إلى الجماهير، التي أصبحت تحظى بالاهتمام كمادة سياسية. وأصبح الجمهور هدفاً للمادة الصحفية، فكانت العروة الوثقى، وتلتها ابنتها المنار وواكبتها مجلة الأزهر، ومثل ذلك مواكبة القبلة وأم القرى كصحافة فكرية سياسية تحمل عقيدة وتدافع عنها.

أما الأدب الثاني الذي ظهر ولم يكن معروفاً على نطاق واسع فهو أدب المسرح، الذي تجاوز حدود أدب الظل وتغريبة بني هلال وسيرة الظاهر بيبرس وعنترة ليتناول القضايا السياسية والاجتماعية والملحوظ هنا أن الأقليات الدينية المسيحية قد لعبت دور القيادة والريادة في هذا الأدب واستطاعت المسارح، وبالتالي دور المخالة والسينما، ومن ثم التلفاز والإذاعة أن تكون حاضنة لنموذج من الثقافة الآلية السريعة المؤثرة ولكن ليس بالضرورة صاحبة الأثر الباقي. واستطاعت هذه الثقافة الجديدة نظراً ليسرها وسهولتها وسرعة تناولها وتقديمها أن تتوسع تدريجياً على حساب الثقافة الجادة المتعمقة، ومن هنا نستطيع القول أن الثقافة العربية في هذا الإطار هذه الأيام تتسم بالمحلية والإقليمية، ويتم تقديمها بإسلوب مدرسي تلقيني تشوبه دوافع الربح التجاري، وهي بالتالي، وبسبب عجز وسائل الإنتاج العربية نصاً وإخراجاً وتوزيعاً، عاجزة عن مجاراة مصادر الثقافة الغربية المتقدمة تقنياً والمتمرسة في كتابة النص، وهذا بالتالي يعود بنا إلى إسلوب المواجهة مع الثقافة الغربية ببعديها الأوروبي والأمريكي ونحن نطل على القرن الحادي والعشرين لنعيد طرح الأسئلة المطروحة مثل التحصين الثقافي والحماية الثقافية ومحاربة الغزو الثقافي والاستلاب، وهذا سؤال يقودنا إلى أطروحة جديدة.

هل ستكون الثقافة في القرن القادم أحادية المصدر قوامها وسنامها مجموعة القيم الغربية المتمثلة بالحرية الفردية وبالديمقراطية الجماعية، وبحرية اقتصاد السوق؟ وهل ستكيّف المجتمعات نفسها في ضوء الشروط الظاهرة والباطنة للمطلب الأمريكي؟

إن الإجابة السريعة على هذا السؤال تكون على شكل سؤال أكبر: "هل نستطيع أن نكون ذاتنا؟ وكيف؟".

أما الملحوظة الثانية في هذين القرنين فهي أن نهاية هذا القرن تتسم بأفول عصر العمالقة العرب في الشعر وفي النثر وفي الكتابة والموسيقى، فدولة الشعر العربي ربما انتهت ببيعتها لأمير الشعراء شاعر الخلافة الإسلامية غير الموجودة أصلاً أحمد شوقي، ونلاحظ أن الشعر العربي قد استهلكته القضية السياسية وقلما أبدع تعبيراً شامخاً عن ذاتية الأمة.

وإذا كنا تحولنا من الشعر التقليدي، من البكاء والاستبكاء، من الرثاء والهجاء، ومن طلب الوظيفة كما عاش عميد الشعر العربي المتنبي، فإننا نرتقي فجأة إلى قمة عالية صافية هي قمة الشعر الصوفي الصادق في التعبير عن الذات والمتجلي في تناول الموضوعات ننحدر بعد ذلك إلى الشعر السياسي العربي الذي عجز في تقديري عن التعبير عن مأساة الأمة المتمثلة في ضياع فلسطين، وإننا نجد – ولسوء الحظ – أن شعر الحنين العبري لفلسطين أكثر إثارة للمشاعر من شعر الحزن على فلسطين وهذه مأساة عجز الشعر العربي في أن يستلهمها ليعبر عن الجرح الدامي، وانتهى الأمر بالشعراء إلى أن يُجلبوا إلى هذه الدولة أو تلك في مرابد ليستعرضهم الحاكم المسؤول، وعليه فإن الشعر العربي الحديث لم يخرج عن خيمة الحاكم العربي ولهذا أسبابه، فقد تسبب انفجار النفط في استدراج الشعراء إلى مثل هذه الهاوية، وأصبح المسؤول يقدر الثمن لحضور الشعراء على ضوء ذلك إلا أننا بحاجة ماسة إلى أن نتفحص هذا الأمر ملياً لنقول أنه لم يكن جميع الشعراء من الذين يدعون إلى المناسبة بل كان هنالك من يحافظ – على كرامته – وبخاصة الشعراء والأدباء والمفكرين الذين التزموا بالخط الإسلامي. والسؤال هنا هو: قل قدر لهذه النخبة أن تعبّر عن إبداعات إسلامية باللغة العربية على غرار ما أبدع الشاعر الباكستاني محمد اقبال.

ولعل من باب الإيجاز أن نقول أن الأمة لم تنجب شاعراً مسلماً في هذين القرنين يعبر عن عظمة الدعوة الإسلامية ورسالتها بمثل ما عبر الشاعر الباكستاني محمد أقبال، بل نجد أن الشعراء قد تغربوا في الرموز التوراتية والأسماء الوثنية من مدارس تموزية ومن مجلة شعر إلى النشر في الخارج، وبالتالي أصبحت الهوة كبيرة بين الشعر والأمة.

والسؤال الملّح الآن: لمن يكتب الشعراء؟ تماماً كما يقول المثل الياباني لمن تتبرج زوجة الأعمى؟

ونلاحظ أن الأمة بذوقها، وربما من باب الحرص على ذاتها قد

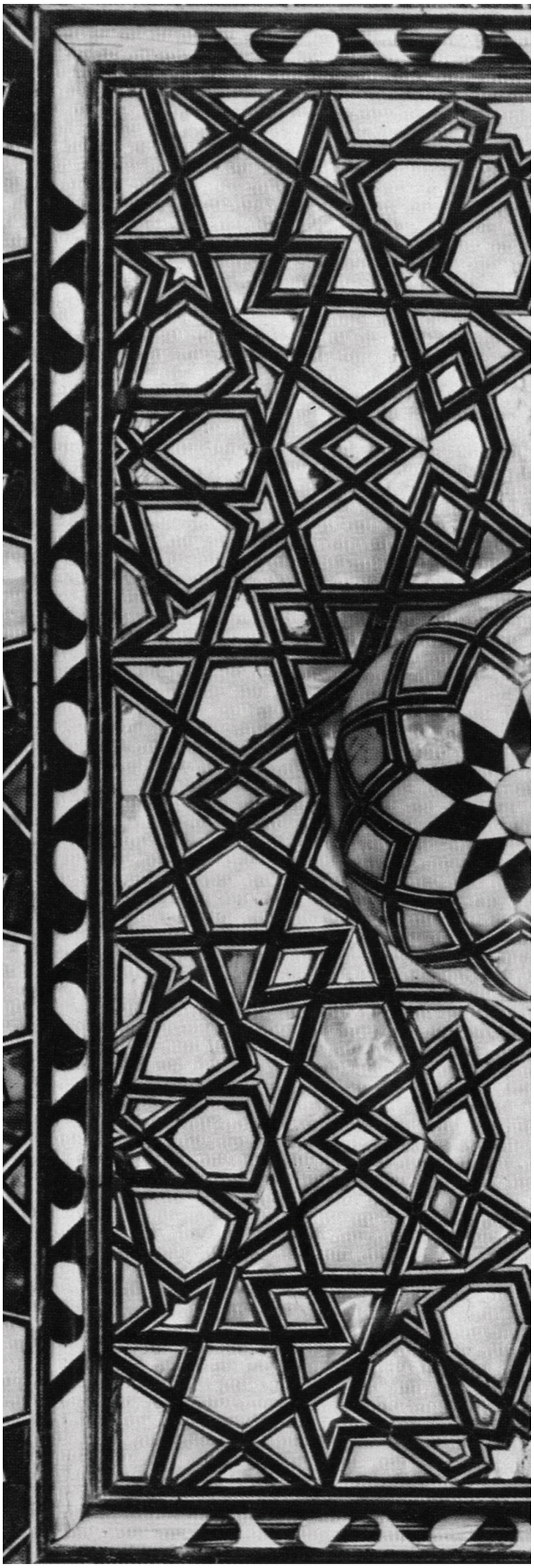

الثقافة التي نريد..
الثقافة التي نستطيع

عزفت عن الكلمات والنقاط المرشوشة إلى الأدب الشعبي والأهلي وإلى اللهجات العامية، ولذلك أسباب عدة منها:

- إعطاء لحمة للطروحات الإقليمية.
- ما تتمتع به التجربة المحلية والتراث الأهلي المحلي من صور جمالية وتعبير حي وعفوية في القول ومقدرة على الإيصال إلى الجمهور وإلا أن مثل هذا التوجه سيصطدم بنفاذ المخزون إذ أن اللهجة العامية على ثرائها وغناها ليست معززة برصيد يكفي لرحلة طويلة.

إلا أننا نلاحظ منذ مطلع الخمسينات على مستوى الأغنية التي قادتها السيدة فيروز والرحابنة وفي ضوء التجربة التي قادتها الأغنية العراقية الأغنية الأردنية وأغاني الخليج.

إن هذا التوجه جاء مكملاً للتوجه المصري ويمثل تجربة باحثة عن الجديد والإضافة وعدم الاكتفاء بالترديد ربما بسبب ما أشرنا إليه سابقاً من غياب الخلق والإبداع والابتكار في كتابة النص.

أما الملحوظة الثالثة، فهي أننا توجهنا خلال هذين القرنين بشكل مكثف نحو التراث تحقيقاً ونشراً واتجاراً. وقد بدأ المستشرقون في ذلك، ودر الكثيرون منا على أيديهم ثم انقلبنا ضدهم بحجة أنهم يطعنون في الإسلام ويغيرون في النصوص ولكن المنهج الذي رسموه بقي هو الأمثل. ونلاحظ أن الدولة منذ قيام الدولة العلوية في مصر قد أخذت هذا الجانب، وما من دولة عربية إلا ولديها دائرة أو وزارة للعناية بنشر التراث وأصبح السؤال المطروح الآن: إلى أي حد نقرأ ما ينشر وكم عد الذين يقرأون في التراث من أبناء الأمة، لا سيما أن الجامعات والأقسام الأكاديمية فيها قد اعتمدت إسلوب المحاضرة والكتاب المقرر بشكل رسمي أو غير رسمي.

وبالتالي: هل نحن على صلة بالتراث بالحجم نفسه وبالاطراد نفسه الذي فيه التراث.

ويخيل إليّ أن كثيراً من الدول معنية بنشر التراث لكسب نوع من الشرعية تاريخياً، أو للمباهاة. كما أن اقبال الباحثين على نشر التراث يجيء إما لتلبية حاجات علمية أو كمورد رزق للعيش.

ولعل تتمة الطرح تقتضي أن نتساءل: هل ما نكتبه خارج ما

الثقافة التي نريد..
الثقافة التي نستطيع

نحققه هو امتداد للتراث أم تكرار سطحي وتلخيص مبتسر له.

وهذه قضية يجب أن نقف عندها كثيراً لنتأملها في صحافتنا ومجلاتنا وإذاعاتنا ومحطات تلفازنا. ويتصل بذلك مشكلة فهم النص، إذ يعتقد الكثيرون أن مستوى معرفتهم للغة العربية يؤهلهم لفهم النص، غير مدركين أن هنالك شروطاً كبيرة لفهم النص واستيعابه، وعليه فإنني لست متأكداً من أن كل من يقرأ من نصاً سيكون مؤهلاً لفهمه بيسر، إذ أن جامعاتنا العربية في آخر عقدين من الزمان بدأت تتنازل عن هذا المطلب في سبيل تهيئة الوسائل للأجيال الصاعدة لتمضي في صعودها دون أن تنال حظها من التدريب.

لقد اتسم القرن العشرون بظهور مدارس النقد الأدبي وبالمعارك الفكرية، وكان المفكر والأديب يشعر بمسؤوليته تجاه المجتمع، ولكن مع إطلالة النصف الثاني من قرننا هذا نلاحظ أن مدارس النقد بدأت بالاختفاء التدريجي وحلّ الزغل والترويج محل المادة الأساسية، وقد تسبب ذلك في بلبلة الخيط الأبيض مع الأسود واختلطت الأمور وانكفأ النقد ليحل محله التقييم المأجور للبحوث، وقتلت الروح فينا لنهتم بالشكل. ومن هنا نلاحظ أننا نتناول النقد تاريخاً وليس مضموناً. وأننا نعني بالظاهر بدل سبر الأغوار.

والسبب الثاني لاختلال الموازين هو أن زماننا العربي هذا هو زمن النفط الذي استطاع أن يحتوي كل الخطوط الفكرية من اليسار والوسط واليمين، وأن يفتح لهم دوراً للنشر والتأليف في بيروت وأوروبا. والطامة الكبرى التي تنتظرنا الآن هي أن النفط العربي اشترى الصحافة العربية في المهجر، وهي تمثل في زمن أحد الرئة العربية القابلة للتنفس.

كما أن اختلال الموازين يعود لغياب الحرية، فالذي يجمع بين المواطنين العرب هو غياب القناة الشرعية للتعبير عن رأيهم كأفراد ومجموعات، والمعبر عن رأيه يوصم بالمعارضة الهدامة، وبأنه مخرّب أو أجير أو مأفون، وهذا من الأسباب الرئيسي للعنف السياسي القادم على الوطن العربي.

وإذا كانت الدولة بأجهزتها سابقاً تمثل رمزكم الأفواه فإن الدولة مستقبلاً ستصبح رمزاً لمطلب المفكر لحمايته من سلطان الشارع، أليس هذا ما نشهده في كثير من الأقطار العربية؟

وإلى مثل ذلك تنبه جلالة الحسين بحدسه التاريخي الفذ عندما جدد الدعوة العربية التي قادها جدة الكبير الحسين بن علي رحمه الله نحو احترام الفرد وحقوقه واحترام الحرية والمشاركة في المسؤولية وسيادة القانون والنظام والالتزام بعقيدة الأمة والدفاع عن دينها والاحتكام إلى الدستور، قاصداً بذلك التحول من مرحلة الركون والخمول والركوع إلى التصدي والمبادرة والريادة والبحث عن المجهول، وقاصداً الاستيعاب وليس الانسحاب، لماذا؟

لأن العالم مقبل على دمار جديد اسمه النظام الدولي الجديد، الذي سيكون على الأغلب أحادي الثقافة، ثقافة الرجل اللاتيني الأبيض، وتبقى ثقافة المرجعية وأداة التحدي لنا، وفي ذلك بؤس لا يُدانيه بؤس.

ومن هنا جاءت الدعوة لتنهض الأمة ولتستفيق من جديد لتحمي ذاتها الثقافية وكينونة العطاء فيها، ولتساهم مع كل الثقافات في الحفاظ على المنجزات الإنسانية والاستعداد نحو الانطلاق باتجاه المستقبل.

ومن جميع ما ذكرت تظهر الصورة قاتمة، فالعرب لم يكتبوا تاريخهم إلى الآن، ولم ينبؤونا عن فيلسوف عربي جديد تجاوز التاريخ ليكتب لنا فلسفة. كما أن الزيادة السكانية وازدياد المطالب الخدمة قد عرت الدولة الحديثة في البلاد العربية وأظهرتها بمقدار عجزها. وهذا يطرح علينا السؤال التالي: هل سنبقى نحن كما وصفنا غيرنا بالمنظرين والمتفرجين والمتفكهين بمآسي الأمة، وهل بلغت هذه الأمة سن القنوط، وهل أحوالها الآن أكثر سوءاً من مثيلاتها.

الجواب بالنسبة لي: لا.

فالأمة الآن تمر بمرحلة مخاض وبمرحلة تنقيه للذات، والنطفة الجديدة ستكون في رحم الأمة الإسلامية، ونسأل الله أن يكون في الجانب العربي منه ليبدأ كل واحد منا رحلة الإسراء والمعراج لربه ولأمته. يقرأ من كتاب الله: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. لنتحوّل من حرف الصاد والصوت إلى حرف القاف والعين، فالقاف كما يقول اللغويون أمتن الحروف وأصحها جرساً، وإذا ما اجتمعت القاف مع العين العربية فإن العين أنصع الحروف وألذها سماعاً، فإذا كانتا أو أحداهما في بناء حَسُنا لنصاعتها، فما بين عين العمل والقول نكون قد بدأنا رحلة المستقبل نحو الثقافة التي نريد.